﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ [التوبة: 73]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الأَمْـرُ بِصدِّ أهلِ الـكُـفْـرِ والنِّـفاق عــن الاعــتــداء وزرع الشِّقاق

لمّا حفَّز اللّهُ سُبحانَهُ المؤمنينَ على موالاةِ بعضِهم بعضًا، وذكر ما أعدَّ لهم من جنَّات ورضوان وفوز، وأقرَّ ذلك في آياته البليغة، في مثل قولِهِ تعالَى: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: 71]؛ أعطى للمؤمنين حقَّ الدِّفاعِ عن أنفسهم، ودفْعِ صولةِ من يجتاح بلادهم، أو يمسُّ مقدَّساتهم، أو يعتدي على حرماتهم، على نحو ما تقرُّه مواثيقُ العلاقات الإنسانيَّة، في الجمع بين التَّعايش الإيجابيِّ من جهة، والمحافظة على كيان الأمَّة واحترام قيمها وسيادتها من جهة أخرى، وذلك بالأمر الإلهيِّ، بأن يدفع النَّبيُّ والمؤمنون معه الاعتداءَ الجائر، والاكتساح الغادر، باتِّخاذ ما يلزم من طُرق المجاهدةِ الشَّريفة، والدِّفاع عن الدِّيار، والذَّود عن الغمار، بما يقتضيه ذلك من قوَّةٍ ماديَّة أو معنويَّة، تحفظ للأمَّةِ هيبتَها، وللدِّين وقارَهُ، دون عدوان ولا هوان، ممَّا يتناسب مع سماحة الإسلام وعزَّتِهِ، وذلك منهجٌ فريدٌ في حفظ العلاقات، وصدِّ الاعتداءات، بعيدًا عن الظُّلم المشين، وتحسُّبًا للعدوان الجائر المهين.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿جَٰهِدِ﴾: الجيمُ والهاءُ والدَّالُ تَدُلُّ تَصريفاتُهُ على المشقَّة[1]، ويأتي بِمَعْنى الطَّاقةِ والوُسْعِ[2]، والمُجاهَدَةُ تُطلَقُ في الشَّرْعِ على استِفْراغ الوُسع في مُدافَعَةِ العَدوِّ، وهو ثلاثةُ أضربٍ: مجاهدةُ العدوِّ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جهد).
(2) الرّاغب، مفردات ألفاظ القرآن: (جهد).

الظَّاهِرِ، ومُجاهَدَةُ الشَّيطان، ومجاهدةُ النَّفس[1]. وغالبُ مُرادات الشَّرع في الجهاد: أنَّهُ محاربةُ أهل الكفر والعدوان، وسُمِّيَ بذلكَ؛ لِما فيهِ مِن استِفْراغِ ما في الوُسع والطَّاقةِ من قولٍ أو فعلٍ[2]، ولِما في ذلك مِنَ المشقَّةِ على النُّفوس، ومادَّة (جَهدَ) حيثما وُجِدت، ففيها معنى المبالغةِ[3]، وهو في الشَّرع: عبارةٌ عن قتال من يمثِّل خطرًا على الأمَّةِ، أو يبادرها باعتداء، أو يضطرُّها لدفع صولته، أو اتِّقاء بأسه، وذلك لنصرة الدِّين، وحماية بيضةِ المسلمين، وفي الحديث: «لا هجرةَ بعد الفتح، ولكنْ جهادٌ ونيَّةٌ، وَإِذا اسْتُنْفِرْتُمْ؛ فانْفِروا»[4]، والمراد بالنِّيَّة: إخلاصُ العمل لله تعالى[5]، وقولهم: جاهدَ في سبيل الله: جادَ بنفسه، قال تعالى: ﴿يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ﴾ [المائدة: 54]، ومجاهدةُ النَّفس: جهادٌ روحيٌّ للنَّفس بفطامِها عن الشَّهوات، والرِّضا بمشيئة الله ربِّ الأرض والسَّماوات[6]، والغاية هي إصلاحُ المجتمعات، وردع النَّزوات، وكفُّ الاعتداءات، وتحقيقُ العدل والمساواة، وحمايةُ القيم والمعتقدات.

2) ﴿وَٱغۡلُظۡ﴾: الغَيْنُ واللَّامُ والظَّاءُ تدلُّ اشْتِقاقاتُها على عِظَمِ الجِرْمِ وتَجَسُّمِه معَ صَلابَةٍ، ويدلُّ لازِمُهُ علَى الشِّدَّةِ والقوَّة[7]. وأَصْلُ الغِلْظَةِ اسْتِعْمالُها في الأَجْسام، وقَدْ تُسْتَعْمَلُ لِلمَعاني، كقَوْلِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ﴾ [التوبة: 123]، أي: خُشونَةً[8]، والغِلْظَةُ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾، هي الشِّدَّةُ البالِغَةُ مَعَ الحِدَّة[9]، ونقل ابنُ سيده قولهم: أغلظَ له في القول: خشَّنَ، وهو مجاز، ولا يقال فيه: غَلَّظ[10]، وأغلظ لفلانٍ في القول: خاطبه بعبارات جافَّةٍ وقاسيَةٍ، وغليظٌ جمعُه غِلاظٌ، وهو القاسي الشَّديد، قال تعالى: ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾ [آل عمران: 159]، فالأصلُ اللِّين وخفضُ الجناح، من رسول الرَّحمة والسَّماح، ولا شدَّةَ إلَّا مع المفسدين، قال الشَّاعر:

(1) الرّاغب، مفردات ألفاظ القرآن: (جهد).
(2) ابن الأثير، النِّهاية في غريب الحديث والأثر: (جهد).
(3) شمس الدّين البعلي، المطلع على ألفاظ المقنع، ص: 247.
(4) الحديث رواه البخاريّ، برقم: (2783)، وذكر أحمد بن حنبل مطلعه بدون زيادة العبارة آخره، يُنظر: المسند: 17/258.
(5) الزَّبيديّ، تاج العروس: (جهد).
(6) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (جهد).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (غلظ).
(8) الرّاغب، المفردات: (غلظ).
(9) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصل: (غلظ).
(10) الزَّبيديّ، تاج العروس: (غلظ).

وَما هوَ إلَّا الوَحْيُ أَوْ حَدُّ مُرْهَفٍ *** تُميلُ ضُبَاهُ أَخْدَعَيْ كُلِّ مائِلِ
فَهذا دَواءُ الدَّاءِ مِنْ كُلِّ عالِمٍ *** وذاك دَواءُ الدَّاءِ مِنْ كُلِّ جاهِلِ[1]

3) ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ﴾: الهَمْزَةُ والواوُ والياءُ تَدورُ تصريفاتُها على مَعْنَيَيْنِ؛ هُما: التَّجمُّع، والإشْفاقُ[2]، ومِنَ الأوَّلِ: التَّأوِّي؛ وهو التَّجمُّع، وقولُ العربِ: تأوَّتِ الطَّيرُ؛ إذا انضمَّ بعضُها إلَى بعضٍ[3].

والمَأْوى: المكانُ الذي يُنْصَرَفُ إليه، ويُقامُ فيه[4]، ليلًا أو نهارًا، وقد أوى فلان إلى منزله يأوي أُوِيًّا، على فُعُولٍ، وإواءً، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ﴾ [هود: 43][5]، وَمِنْه قَوْلُهُ ﷺ للْأَنْصار: «أُبايعكُم على أَن تُؤوني وتنصروني»[6]، وَقولُ اللهِ ﷻ: ﴿وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ﴾، أَيْ: مَساكِنُهُم فيها، يَأْوونَ إِلَيْها، ويَرْجِعونَ يَوْمَ القيامَة[7].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

بَيانُ حُكْمِ المُنكرين والمخاتلين في الدُّنْيا، ومآلِهِم المخزي في الآخِرَة

يوجِّهُ السِّياقُ الأمرَ إلى النَّبيِّ الكَريم ﷺ، بأن يحميَ حمى الدِّين، وأن يذبَّ عن أكناف الأمَّة، فيواجهَ من يضرُّ بالكيان، ويصدَّ من يريد هدْمَ الأركان، من الكفَرَةِ الجاحدين، وأهل النِّفاق المتآمرين، بكلِّ وسائل الرَّدعِ المتاحة له، بالمواجهة والسِّنان، وبالمحاجَجَةِ والبرهان، ليمنعَ عدوان هؤلاء، ويحصِّنَ الأمَّة من سموم أولئك في حزمٍ زاجر، وخطاب قاهرٍ، يحولُ بينهم وبين ما يسعَون إليه من مفاسدَ ماحقةٍ، أو ضلالات ساحقة، علمًا بأنَّهم سيؤولون إلى مأوًى

(1) البيتان لأبي تمَّام من قصيدته في مدح المعتصم، الدّيوان: 3/79، والتي مطلعها:
غَدا المُلْكُ مَعْمور الحِمَى والمنازِلِ *** مُنَوَّرَ وَحْفِ الرَّوْضِ عَذْبَ المَناهِلِ
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (أوى).
(3) الخليل بن أحمد، العين: (أوى).
(4) ابن أبي نصر الحُميديّ، تفسير غريب ما في الصَّحيحين، ص: 266.
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (أوا).
(6) الزّمخشريّ، الفائق في غريب الحديث والأثر: 1/64.
(7) ابن جرير، جامع البيان: 14/360.

في الآخرة بئيسٍ، وإلى مصير في النَّار تعيسٍ، ليُعذَّبوا فيها أبدًا، ولا يظلم ربُّك أحدًا.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

عِلَّةُ فَصْلِ الآية عَمّا قَبْلَهُا:

الانتقالُ من بَيانِ ولاية أَهْلِ الإيمانِ إلى التَّحفيز عَلى مدافعة أهل الكفران

فُصِلَ قولُ اللهِ ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ؛ لوقوعه استئنافًا ابتدائيًّا؛ إذِ المَقْصودُ مِنْهُ الإقبالُ على خطاب النَّبيِّ ﷺ بأَمْرٍ يتعلَّقُ بأحْوال الكفَّار والمنافقينَ بَعْدَ أَن كانَ الكلامُ عَن ولاية أَهْلِ الإيمان بَعْضِهِم بَعْضًا، وما وعدهم اللهُ تعالَى به من الجَزاءِ، وقد كان الفصل أيضًا، لعلَّةِ الإشعار بأهمِّيَّة هذه المواجهة بين الكفرِ والفسقِ والنِّفاق من جهةٍ، وبين الإيمان والالتزام بفضائل الأخلاق من جهةٍ أخرى، فجاء السِّياق ليفصلَ بين الحالين، ويستأنفَ الكلام بما يقتضيه المقام.

نُكْتَةُ النِّداءِ بـ (يا) في: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾:

عَظَمَةُ اللهِ ﷻ، تتجلَّى في عظمة خطابه لأوليائه وأعدائه

جاء التَّعبيرُ في النِّداء بـ (يا) في قولِ اللهِ سُبحانَهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، وهيَ في الأصل لِنداء البَعيدِ، ونداءُ اللهِ ﷻ لرُسله وأنبيائِه، نِداءٌ مِنَ الخالق إلَى المَخْلوقينَ، فقَمِنٌ أن يكونَ بأداةِ النِّداء المكرَّسة للبعيد، وَفي التَّعبير بها نِكاتٌ: أولها: بُعْدُ ما بَيْنَ الخالِقِ والمخلوق مِنَ المَكانةِ. وثانيها: أنَّه نِداء من الخالق سُبحانَهُ، وهو مُقْتَضٍ أعلى العلوِّ. وثالثُها: عِظَمُ شَأْنِ موضوع النِّداء؛ وهو الكلامُ عن جِهادِ المُنابذينَ لشرع اللهِ تعالى المُعادينَ إيَّاهُ، فإنَّ لَهُ شأنًا خَطيرًا، واهتمامًا جديرًا، علمًا بأنَّ نداءَ اللهِ لنبيِّه وحيٌ يوحى، وأحكامٌ تشرَّعُ، وتبيانٌ منه تعالى لما تقتضيه العبوديَّةُ للهِ، من التزامٍ بأحكامه، وتطبيق لمراده في التَّعامل مع المؤالفِ والمخالف، لضمان استقرار المجتمع الإسلاميِّ وتوازنه في العلاقات الدَّاخليَّة والخارجيَّة.

سِرُّ النِّداءِ بِـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾:

مُضاعَفَةُ التَّنْبيهِ إيماءٌ إلى عَظَمَةِ مضمون النِّداءِ وأَهَمِّيَّتِهِ

في قولِ اللهِ تَعالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، نجدُ النِّداء قد جاء متميِّزًا بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾ مصدَّرة لسياق الآية الكريمة، وبها افتُتحت الجملة، وفي ذَلكَ ضَرْبٌ مِن تَقْوِيةِ النِّداءِ، وَوَجْهُ ذلكَ: أنَّ لفظ (أَيّ)، تُعربُ منادًى نكرة مقصودة، وهو مبنيٌّ على الضَّمِّ، في محلِّ نصبٍ، ولا يُفْهَمُ المرادُ بها إلَّا باسمٍ بعَدَها يُزيلُ غُموضَها، ويكون بدلًا من (أيُّ)، أو عطفَ بيان يتبعه في الرَّفع لفظًا، وفي هذا انتقالٌ مِنَ الإبْهام إلى الإيضاح والبَيانِ، وذلكَ ضربٌ مِنْ ضُروبِ التَّوكيدِ، وفي اقترانِ (أَيّ) بـ (ها) التَّنبيهِ: زيادةٌ في التَّوكيدِ؛ إذِ النِّداءُ في الأَصْلِ يُرادُ به التَّنبيهُ، فاجتمَعَ في هذا النِّداءِ الخاصِّ تَنْبيهان؛ إيماءً إلى عَظَمَةِ مضمونِهِ وكبيرِ أهمِّيَّتِهِ.

سِرُّ النِّداءِ بِالوَصْفِ دونَ الاسم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾:

بيانُ جلالِ قَدْرِ النَّبيِّ ﷺ عِنْدَ رَبِّهِ الرَّحمن

مِن طرائقِ القُرآن الكريم في نداء النَّبيِّ ﷺ: أن يُنادَى بالوَصْف لا بالاسم، فلَم يَرِد في النَّظْم القرآنيِّ قطُّ: (يا مُحَمَّدُ)، وإنَّما يَرِدُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، و﴿*يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ [المائدة: 41]، وذلكَ لبيانِ رفعَةِ قَدْرِ النَّبيِّ ﷺ عند ربِّهِ سُبْحانَهُ، وبيانِ عَظيم كرامَتِهِ عنده[1]، وفيهِ أَيْضًا تَعْليمُ العبادِ الأدبَ معَهُ ﷺ، وقد ذكر علماءُ الشَّمائل: أنَّ نداء النَّبيِّ بالصِّفة دون الاسم، تأكيدٌ على أنَّه مخلوق أزلًا لمهمَّة البلاغ عن الله، وقد كان مخصوصًا بأنَّه آخرُ أُذُنٍ استمعت إلى وحي الله بالحقِّ، ولسانُ الصِّدق الَّذي بلَّغ عن الحقِّ مراده من الخلق، بينما نُوديَ الرُّسل بأسمائهم، فقيل: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: 35]، وقيل: ﴿يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ﴾ [هود: 48]، وقيل: ﴿وَنَدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۝١٠٤ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾، [الصَّافات: 104 - 105]، وقيل: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ

(1) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 9/5328.

﴿١٠﴾ [النَّمل: 10]، وقيل: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: 55]..

وهكذا دواليك.

نُكْتَةُ وَصْفِ النَّبيِّ بالنُّبوَّةِ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾:

التَّرْغيبُ في التَّلَقِّي مِنَ النَّبيِّ الرَّسول لإنبائِهِ بِكُلِّ مَعْنًى جَليلٍ

في قولِهِ سُبحانَهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، وصْفُ بالنُّبوَّةِ دون الرِّسالة، معَ تحقيقِ الوصفَيْنِ لِقصد بَيانِ منزلة النَّبيِّ ﷺ الرَّفيعَةِ؛ لكون لفظ النُّبوَّةِ مُشْعِرًا بأنَّه ﷺ مُنْبَأٌ من الله سُبحانَهُ، وفي هذا إيماءٌ إلى التَّرغيبِ في التَّلقِّي منه ﷺ؛ إذْ إنَّ اللهَ سُبحانَهُ، قد أنبأه بكلِّ جليلٍ من المعاني، فمعنى قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾: أيُّها العالي المكانَةِ بما لا يزالُ يتجَدَّدُ لَهُ من الله سُبحانَهُ من الأنباء والمعارف الإيمانيَّةِ[1]، وهو يمتاز مع ثلَّةٍ من الرُّسلِ الَّذين جمعوا بين النُّبوَّةِ والرِّسالة، بأفضليَّةٍ ومكانة، تتناسب مع عظم المهمَّة المنسوبة إليه، والَّتي تحمَّلها بجدارة ومهارة، ونجح في المواءمة بين الصِّفتين، وهما صفتا كمالٍ وجلال، تؤهِّلانه للاصطفاء والشَّفاعة، وقد قيل: (كلُّ رسول نبيٌّ، وليس كلُّ نبيٍّ رسولًا).

دِلالَةُ (ال) في لفظ ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾:

تفرُّدُ النَّبيِّ مُحَمَّدٍ بالنُّبوَّةِ وَقْتَ النُّزول، مُغْنٍ عَنْ تَعْيينِ اسمه المنقول

في قولِ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، نجد اللَّامَ في ﴿ٱلنَّبِيُّ﴾ مِنَ الآية الكريمة، دالَّةً على العهد العلميِّ، والمرادُ بِهِ النَّبيُّ مُحَمَّدٌ ﷺ، ويجوزُ أن تَكونَ اللَّامُ للعهد الحضوريِّ، أي: النَّبيُّ الحاضِرُ وقت نزولِ هذا الخِطابِ، ومن المعلوم أَنْ لا نَبيَّ في الأرضِ حيٌّ وقتَ نُزولِ هذا الخِطاب إلَّا محمَّدٌ ﷺ، والوجهان متآيلان.

دِلالَةُ تَخْصيصِ النَّبيِّ بِالخِطابِ:

في قولِ الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾: خُصِّصَ النَّبيُّ ﷺ بالخطاب؛ لكونه قائدَ الأمَّةِ، ومبلِّغَ شَرْعِ الله تعالى إليها، وإلَّا فإنَّ أمَّتَهُ من بَعْدِهِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/547.

داخلةٌ في هذا[1]، ويكون الأَمْرُ في قوله سُبْحانَهُ: ﴿جَٰهِدِ﴾ مرادًا به العُمومُ؛ لخُروجِ ضمير الخطاب المُسْتَتِر عن أصله في الدِّلالَةِ علَى المُعَيَّن إِلَى إرادَةِ العُموم علَى سبيل البَدَليَّةِ لا على سبيل التَّناوُلِ، دَفْعَةً واحِدَةً، ولا حاجَةَ - على هذا - إلى تَقْديرِ مَحْذوفٍ، وهوَ: جاهِدْ بالمُؤْمِنينَ الكُفَّارَ[2]؛ لإغناء التَّوجيه السَّابق عنه من غير افتقارِهِ إِلَى هذا المَحْذوفِ، لا سيَّما وأنَّ دَعْوى الحَذْفِ علَى خِلافِ الأَصْلِ، ناهيك عن كون الصِّراع مع فئتَيِ الكفر والنِّفاق، هو صراع خطير وكبير، يقتضي تضافرَ الجهود، وتجميع طاقات الأمَّةِ، لتحقيق مراد الله في استئصال شأفةِ المرض العقديِّ المستشري في المجتمع المسلم، والَّذي يجب أن يعالجَ ابتداءً بالدَّعوة والحوار، وتقديم طرائقِ الإقناع، فإذا انسدَّتِ الأبوابُ، وكَبُرَ الخطرُ، وتعاظم الضَّررُ، فلا مندوحة آنئذٍ من استعمال وليِّ الأمر للوسائل الشَّرعيَّة والقانونيَّة الَّتي تفرض الأمن، وتتيح للكافر أن يرتدعَ، وإلى المنافق أن يندحرَ، وهو أمرٌ حرصَ عليه النَّبيُّ في الأوان الأوَّل، وأعانه عليه جيلُ الصَّحابة الرَّائد، مع ضمان آليَّات ذلك في ظلِّ العدل والإنصاف، وتحرِّي مراحلِ العلاج للظَّواهر النَّابتة، والقضايا المتجدِّدة والثَّابتة، ممَّا تعانيه الأمَّة في كلِّ العصور، فيكون الحلُّ متدرِّجًا في أناة وثقة، حتَّى إذا بلغ السَّيلُ الزُّبى، ووصل الحزام الطُّبيَين؛ كان آخرُ الدَّواء الكيَّ.

خطابُ النَّبيِّ ﷺ يطالُ أُمَّتَهُ باعتبارِهِ القدوةَ

دِلالَةُ الحقيقة والمجاز في قَوْلِه: ﴿جَٰهِدِ﴾:

الجِهادُ في قول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، يَخْتَلِفُ معناه باختلاف مُتَعَلَّقِه، وذلك أنَّه تَعَلَّق بطائفتين: إِحْداهُما: الكفَّار. والأُخْرَى: المُنافِقون. والمُرادُ بِهِ في جانب الكُفَّار هو المَعْهودُ

كَفُّ النَّبيِّ عن العقاب، حتَّى لا يُتَّهم بأذيّة الأصحاب

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/204.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/204.

في خطاب الشَّرْعِ عند إطْلاقِهِ، وهو جهادُ المواجهة بالسِّنانِ، بِخِلافِهِ في المُنافقين؛ فإنَّ المُرادَ به جهادُ الحُجَّة والبيانِ؛ لِما عُلِمَ في الشَّرْعِ مِن كفِّ النَّبيِّ ﷺ عَن مناجزة المُنافقينَ؛ خَشْيَةَ أَنْ يُظَنَّ أنَّه يَقْتُلُ أَصْحابَهُ؛ لخفاءِ كُفْرِ المنافقين، وعلى هذا؛ فاللَّفظ مُسْتَعْمَلٌ في حَقيقَتِهِ ومجازه[1]، وهو ضَرْبٌ مِن استعمال اللَّفظ المُشْتَرَكِ في معانيهِ، ولكنَّنا لا نفتأ نذكِّر بأنَّ الإسلام دينُ سلام، وأنَّه يقدِّم الحوارَ على النِّفار، وأنَّه لم يُقْدِم على حرب في مسار الغزوات النَّبويَّةِ إلَّا دفعًا لمظلمة، أو ردًّا لغبن، أو دفعًا لصولة صائل، أو صونًا للدِّين من هجمات الغادرين، ولذلك قيل: (الإسلامُ انتصر على السَّيف، ولم ينتصر بالسَّيف)، والدَّليل على ذلك أنَّ ما يقرب من ثلثي العالم الإسلاميِّ الآنيِّ، في أقصى آسيا وبلاد الأناضول، وأدغال إفريقيا، لم يدخلْها الإسلامُ بالجنود الغزاة، بل دخلها بالتُّجار الدُّعاة، حيثُ كانت الأخلاق العالية، والشَّمائل الزَّاكية، والمعاملة الطَّيبة، وإبداء اللُّطف والرِّفق، والتزام الأمانة والصِّدق، هي السَّبب في دخول شعوبٍ بأكملها إلى الإسلام.

سِرُّ الجَمْعِ بَيْنَ لفظي ﴿ٱلْكُفَّارَ﴾ وَ ﴿وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾:

مجابهةُ المُنافِقينَ تقطَعُ دابِرَهُمْ، وتكْسِرُ شَوْكَتَهُمْ

في قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، فائدةُ الجَمْعِ بين الكُفَّار والمُنافقين في هذا النَّصِّ المتين، وهو لإخافتهم وزلزلةِ كيانهم، وإشعارهم بأنَّ مكرَهم معلوم، وكيدهم مكشوفٌ، عند من لا تخفى عليه خافيةٌ، ولا شكَّ أنَّ استثمارَ دور اللِّسان في مواجهة المنافقين، فيما يسمَّى في عصرنا بالحرب الإعلاميَّة، له دورٌ كبير في هذا الصِّراع المرير بين الحقِّ والباطل، ومطلوبٌ منه أن يكون صادقًا معهم، فلا يقابل نفاقًا بنفاق، بل إنَّ من أُسس مجابهة أهل النِّفاق: "ألا يبشَّ لهم، حتَّى يطمعوا في خداعه، بل يشعرهم بأنَّه

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/266.

في حَذَرٍ منهم.. يستنكر أفعالهم بيده، فإن لم يستطعْ فَبِاكْفهرار وجهه، وفي الجملة يسدُّ عليهم بابَ خديعتهم"[1]، خصوصًا وأنَّ كُلَّ واحدٍ منهم يخشى أَن يُفْضَحَ أَمْرُهُ، فيُعامَلَ مُعامَلَةَ الكفَّار الحربيِّين، فيكونُ الأَمْرُ بذلك كاسِرًا شَوْكَتَهُمْ[2].

نُكْتَةُ تَقْديمِ الكُفَّارِ عَلَى المُنافِقينَ:

المُنافِقونَ أَضْعَفُ وَأَهْوَنُ من أن يَتَجاسروا عَلَى إِظْهارِ المُخالَفَةِ

في قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، قُدِّم لفظُ ﴿ٱلْكُفَّارَ﴾ على ﴿وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، لكون السِّياق في الأَمْرِ بالمجالدة الحربيَّة، وهي أَدْخَلُ في المُصارحينَ بِالمُخالَفَةِ، فكانَ الكُفَّارُ أولَى بذلك؛ لشدَّة شَكيمَتِهم، وقوَّةِ أَنْفُسِهم، ولِذا بُدِئَ بِهِمْ في الذِّكْرِ، ثُمَّ ثُنِّيَ بالمُنافِقينَ؛ لكونهم أَخْوَفَ وأَضْعَفَ نَفْسًا، وأَهْوَنَ قَدْرًا، ولِذا فإنَّهم لَم يَجْرُؤوا علَى إِظْهارِ المُخالَفَةِ[3].

دِلالَةُ (ال) في لفظَي الجمع: ﴿ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾:

الأَمْـرُ بِمجالدة الـكُـفَّـارِ والمُـنـافِـقـينَ، لـدفع الخطر، واجتناب الضَّرر

الألف واللَّامُ في لفظَي ﴿ٱلْكُفَّارَ﴾ و﴿وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، مِنْ قَوْلِ اللهِ ﷻ: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾، يُرادُ بها الاستغْراقُ، أي: جاهِدْ جميعَ أهل الكفر والنِّفاق، وَيَجوزُ أن تَكونَ اللَّامُ للكمال، والمعنى: جاهِدِ الكفَّارَ الكاملينَ في الكُفْرِ الرّاسخينَ فيه - فيَخْرُجُ مِنْهُ مَنْ لَيْسَ كاملًا في الكُفْرِ، وهوَ كُلُّ مَن تلَبَّسَ بشيءٍ مِنْ أفرادِ الكُفْرِ الأَصْغَرِ - وجالِدِ المُنافقين الكاملينَ في النِّفاقِ المُغْرِقينَ فيه، فَلا يتَناوَلُ الخطابُ مَنْ ليس كاملًا في النِّفاق؛ وهوَ كُلُّ مَن وَقَعَ في بَعْضِ خِصالِ النِّفاق الأصغر، أو وقع منه سهوٌ أو خطأ غير متعمَّد، ممَّا تقتضيه ممارسةُ الحياة، وتداعياتُ الصِّراع الَّتي تتماوج بها مشاكل النَّاس تموُّجًا، وتمور به معاملاتهم مورًا، ومثال ذلك ما روي في

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3375.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 10/266.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/547.

الحديث الشَّهير: «نافق حنظلة...»[1]، ولا تَعارُضَ بين المعنيَين، بل تجوز إرادَتُهُما معًا، ويكون المعنى: جاهِدْ جَميعَ الكُفَّار والمُنافِقينَ الكامِلين في الكفر والنِّفاق.

دِلالَةُ الأَمْرِ بِالغِلْظَةِ بَعْدَ الأمر بالجهاد:

إبـــرازُ عَـظَـمَـة رِفْـقِ النَّبيِّ ﷺ وَرَحْمَتِهِ

في قولِهِ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾، ذُكِرَ الأَمْرُ بالغِلظة بعد الأمر بالجهاد في هذه الآيةِ الكريمة، مع أنَّ الجهادَ ملازِمٌ عادةً للغِلْظَةِ؛ لكون النَّبيِّ ﷺ مَطْبوعًا على الرِّفقِ مجبولًا على الرَّحمة، فأُمِرَ هَهُنا بالتَّخلِّي عن جِبِلَّتِهِ في حقِّ الكفَّار والمُنافقين، وألَّا يُعامِلَهُمْ بِمِثْلِ ما يعامِلُهُم به من اللِّين، وألَّا يُغْضِيَ عنهم، كما كان شَأْنُهُ مِنْ قَبْلُ[2]، وعلَّة الأمر بمواجهة ظاهرةِ الكفر والنِّفاق: أنَّ مواجهةَ استشراءِ هذا الدَّاءِ العضال، لا بدَّ منها، وهي سنَّةٌ كونيَّةٌ نافذة، لا مفرَّ منها، ولا مندوحةَ عنها، وقد أمر اللهُ بمواجهة المشركين الكفرةِ، وتغليظِ القول للمنافقين الفَجَرَةِ، ويكون التَّغليظُ لإيضاح المصير الَّذي ينتظرهم؛ لأنَّ الكافرَ عابدٌ للدُّنيا، ويخاف أن تضيعَ منه؛ لأنَّه لا يؤمن بالآخرة، وما فيها من حسابٍ وعذابٍ، وعليه فيُغْلِظُ عليه في التَّخويف والنِّذارة بالآخرة، وما ينتظر الكافرَ والمنافق من عذاب وهوان، سوف تشيب من هوله الولدانُ، فيكون تخويفُهُ والتَّشديدُ عليه، وتهويل الأمر له؛ ردعًا

---

(1) الحديث بنصّه هو: عن حنظلة الأسيديّ قال: - وكان من كتَّاب الوحي للرَّسول ﷺ -: «لقيني أبو بكر، فقال: كيف أنت يا حنظلة؟ قلت: نافق حنظلة، قال: سبحان الله! ما تقول؟ قال: قلت: نكون عند رسول الله ﷺ، يذكِّرنا بالنَّار والجنَّة، حتَّى كأنَّا رأي عين، فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ، عافسنا الأزواج والأولاد والضَّيعات، قال أبو بكر: فو الله! إنَّا لنلقى مثل هذا، فانطلقت أنا وأبو بكر حتَّى دخلنا على رسول الله ﷺ، قلت: نافقَ حنظلة يا رسول الله! فقال رسول الله ﷺ: وما ذاك؟ قلت: يا رسول الله! نكون عندك تذكِّرنا بالنَّار والجنَّة، حتَّى كأنَّا رأي عين، فإذا خرجنا من عندك، عافسنا الأزواج والأولاد والضَّيعات، فنسينا كثيرًا، فقال النَّبيُّ ﷺ: والذي نفسي بيده! أن لو تدومون على ما تكونون عندي، وفي الذِّكر، لصافحتكم الملائكة على فرشِكم وفي طرقكم، ولكن يا حنظلةُ! ساعة وساعة»، [أخرجه مسلم في صحيحه: باب فضل دوام الذّكر، حديث رقم: (4937)].

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 8/547، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/267.

لكفران من كفر، وزجرًا لنفاق من تلوَّنَ بالنِّفاق وفجر، خصوصًا وأنَّه ليس خالدًا في هذه الدُّنيا الغرور، وما ينتظره في الآخرة قاصمٌ للظَّهر من العذاب المهول[1]، ومعاملة العدوِّ المحارب باللِّين والرَّحمة، وضع لهاتين الصِّفتين في غير موضعهما، قال الشَّاعر:

وَوَضْعُ النَّدَى في مَوْضِعِ السَّيْفِ في العُلا *** مُضِرٌّ كَوَضْعِ السَّيْفِ في مَوْضِعِ النَّدَى[2]

بلاغةُ الاسْتِعارَةِ في: ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾:

الغِلْظَةُ نقيضُ الرِّقَّةِ، والأصلُ استعمالُها في الأجسام، وهي في قول الله ﷻ: ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ مُسْتَعْمَلةٌ في المعاني[3] على جهة الاستِعارةِ التَّصريحيَّةِ التَّبعيَّة، وفي ذلكَ: إخْراجٌ للمعاني المَعْقولَةِ في قالب الصُّوَرِ الحسِّيَّة؛ زيادَةً في الأَمْرِ بالشِّدَّة عليهم، ومُبالغَةً في إلقاء الرُّعْبِ في قلوب الكُفَّار والمُنافقين.

المُبالَغَةُ في التَّغليظ على الكُفّارِ والمُنافِقينَ، لردعهم عن غوايتهم

دِلالَةُ الوَصْلِ (بالواو) في: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾:

الواوُ في قول الله ﷻ: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ استئنافيَّةٌ، والجُمْلَةُ بَعْدَها مُسْتَأْنَفَةٌ لبيان آجلِ حالهم، بَعْدَ بيان عاجله في قوله: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾[4]، وجُمْلَةُ ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ مَحْمولَةٌ على المعنى؛ وهو أنَّهُ قد اجتَمَعَ لهم عذابُ الدُّنيا بالجهاد والغِلْظَةِ، وعذابُ الآخِرَةِ بكون جَهَنَّمَ مَأْواهُم، ويُحْتَمَلُ أن تكون الواوُ حاليَّةً، والجملةُ بعدها حالٌ، والمعنى: جاهِدْهُم، واغْلُظْ عليهم في حال استحقاقهم جَهَنَّمَ، ويَجوزُ أن تكون الواو مُنَبِّهَةً على إرادة فِعْلٍ مَحْذوفٍ، والتَّقديرُ: جاهِدْهُم واغْلُظْ عليهم، واعْلَمْ أَنَّ مأواهم جهنَّم[5].

اجتِماعُ عَذابِ الدُّنيا وعذابِ الآخِرَةِ من أشنع البلاء

(1) لمزيد من التَّوضيح في هذا الملمح، ينظر: تفسير الشّعراويّ: (الخواطر): 9/5335.
(2) الواحديّ، شرح ديوان المتنبّي، ص: 266، رضا، تفسير المنار: 10/474.
(3) الرّاغب، المفردات: (غلظ).
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/84.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 5/327.

دِلالَةُ التَّقْديمِ والتَّأْخيرِ في: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾:

بَيانُ عَظيمِ جَزاءِ الكُفَّارِ والمُنافِقينَ وَشَناعَةِ مَآلِهِمْ

المُخْتارُ أَنْ يكون لفظ ﴿جَهَنَّمُ﴾ مُبْتَدأً مُؤَخَّرًا، و﴿وَمَأْوَىٰهُمْ﴾ خَبَرًا مُقدَّمًا في قول الله ﷻ: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾؛ لكون المأوى أعمَّ، وجهنَّمَ أخصَّ، ففيه تقديمٌ لِما حقُّه التَّأخيرُ، والمرادُ القصرُ والحَصْرُ، والمعنى: لا مأوى لهم إلَّا جَهَنَّم، وفي هذا بيانٌ لِعَظيمِ جَزائِهِم وشَناعَةِ مَصيرِهِم ومُسْتَقَرِّهم؛ حَيْثُ لَم يَكُنْ لَهُمْ مُسْتَقَرٌّ ومأوًى إلَّا النَّار[1]، "والمعنى: أنَّه قد اجتمع لهم عذاب الدُّنيا بالجهاد والغلظة، وعذاب الآخرة، فيجعل جهنَّمَ مأواهم، قال السَّمين: ولا حاجة إلى هذا كلِّهِ بل هذه جملةٌ استئنافيَّة"[2]، وكونها استئنافيَّةً، فهي تقرِّر أنَّ المأوى هو جهنَّم، وهو بذلك مرعبٌ للنُّفوس الَّتي تنتظر المأوى الحسن هناك، فتُفْجَعُ بتأكيد سوءِ المصير، خصوصًا وأنَّه آخر المطاف، ونهاية التَّطواف، وأنَّه لا مقامَ بعده، ولا فرصة للتَّحوُّل منه، ولا للنَّأي عنه، ولكون مأواهم جهنَّم، فهو رمزُ المعاناةِ اللَّامتناهيَةِ، والعذاب الخالد المقيم.

بَلاغَةُ الاسْتِعارَةِ التَّهَكُّميَّةِ في: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾:

التَّهكُّمُ مِنْ أَشَدِّ أَلْوانِ العَذابِ النَّفْسيِّ

أصلُ المأوى: المكانُ الَّذي يُنْصَرَفُ إليه، ويُقامُ فيه[3]، وإنَّما يُؤْوَى إلى مكانٍ فيه استقرارٌ وراحَةٌ واطمئنانٌ، فمجيءُ التَّعبيرِ القرآنيِّ عن جهنَّم بالمأوَى في قوله سُبْحانَهُ: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ من بابِ الاسْتِعارَةِ التَّهكُّميَّةِ[4]، وهذا أشدُّ وقعًا على النُّفوسِ؛ لِما فيهِ مِنَ الإنزالِ لِقَدْرِ المخاطَبِ، والحطِّ مِنْهُ[5]؛ لأنَّ المأوى يأوي إليه الإنسان، ليجد فيه المستقرَّ والرَّاحة والاطمئنان، فذِكْرُ المأوى في هذا المقام

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/319.
(2) القِنَّوجيّ، فتحُ البيان في مقاصد القرآن: 5/350، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 6/86.
(3) ابن أبي نصر الحُمَيْديّ، تفسير غريب ما في الصَّحيحين، ص: 266.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3377.
(5) يحيى العلويّ، الطِّراز لأسرار البلاغة: 1/127.

تهكُّمٌ عليهم، كقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾﴾ [آل عمران: 21][1]، وكذلك ما ورد في سورتَي [التَّوبة: 34] و[الانشقاق: 24] بنفس اللَّفظ والمعنى.

نُكْتَةُ الجَمْعِ بَيْنَ المأْوَى والمَصيرِ في: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾:

التَّأكيدُ على سوءِ عاقِبَةِ الكُفَّارِ والمُنافِقينَ وَقَبيحِ مَآلِهِمْ

في قول الله ﷻ: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾، جُمِعَ بينَ المَأْوَى والمَصيرِ، والمأْوَى: هوَ المَكانُ الَّذي يُنْصَرَفُ إِلَيْهِ، ويُقامُ فيهِ[2]، والمَصيرُ: هو المكان الَّذي يَصيرُ المَرْءُ إليه، أي: يَرْجِعُ، فالاختلاف بين المَأْوَى والمَصيرِ، هو بالاعتبار فَحَسْبُ، فيكون الجَمْعُ بَيْنَهُما مِن بابِ التَّفَنُّنِ في التَّعْبير[3]، والتأكيد على سوء مصيرهم وشَنيعِ عاقِبَتِهِمْ.

بَراعَةُ التَّذْييلِ: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾:

المُبالَغَةُ في تَهْديدِ الكُفَّارِ والمُنافِقينَ وَوَعيدِهِمْ، مفيدٌ في بابه

قَوْلُ الله ﷻ: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ تَذْييلٌ غَيْرُ جارٍ مَجْرى المثل؛ لعدم استغنائه عَمَّا قَبْلَهُ في إدراك تَمام المُرادِ مِنْهُ، وهو تقرير الجَزاءِ المَذْكورِ قَبْلُ في قوله تعالَى: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ﴾ وتَثْبيتُهُ في الأَذْهانِ؛ زيادَةً في الوعيد والتَّهديد، والمَخْصوصُ بالذَّمِّ محذوفٌ، والتَّقديرُ: بِئْسَ المَصيرُ جَهَنَّمُ[4]، وعليه فإنَّهم "لا مأوى لهم يلجؤون إليه إلَّا دار العذاب الَّتي لا يموتُ من أوى إليها، ولا يحيا حياةً طيِّبة، وبئس المصيرُ هي، قال تعالى: ﴿إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾ [الفرقان: 66][5].

المتشابِهُ اللَّفظيُّ:

دِقَّةُ البَيانِ القُرْآنيِّ في انتِقاءِ الأَلْفاظِ وَحُروفِ المَعاني المُلائِمَةِ لِسياقاتِها

قال اللهُ ﷻ: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾، وقال سُبْحانَهُ: ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾ [آل عمران: 197]، ووَجْهُ المغايرة بينهما أنَّ آيةَ آل عمران تقدَّمها قولُ الله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾﴾ [آل عمران: 196]، فلمَّا كانت

(1) محمّد أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3377.
(2) ابن أبي نصر الحُمَيْديّ، تفسير غريب ما في الصَّحيحين، ص: 266.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/267.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/84.
(5) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 10/164.

شِدَّةُ التَّقَلُّبِ تجعل أصحابَها في حاجَةٍ إلى مكان يكون مُمَهَّدًا لَهُمْ لأجل الرَّاحة، وكانت جَهَنَّمُ هي مهادهم؛ ناسَبَهُ قَوْلُهُ سُبْحانَهُ: ﴿ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾ [آل عمران: 197]، بخلاف آية التَّوبة؛ فَإنَّها قَد صُدِّرت بقول الله تعالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾، فلَمَّا كان بين قوله تَعالَى: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾، وقولِهِ ﷻ: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ اتِّصالٌ مِنْ جِهَةِ كونهما خِطابًا لِلنَّبيِّ ﷺ، وحَديثًا عَنِ الكُفَّار والمنافقين، وانفِصالٌ من جِهَةٍ أخرى لاختلاف الجملتين خَبَرًا وإنْشاءً؛ عُطِفَ بَيْنَهُما بالواو، ولَمَّا كانَ مَن أَوَى إلَى مَكانٍ قَد يَصيرُ إلَى غيره، وكانَتْ جَهَنَّمُ هيَ مصيرهم الأبدي؛ ناسَبَهُ قولُ اللهِ سُبْحانَهُ: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾، وعُطِفَت آيةُ آل عمران بِـ ﴿ثُمَّ﴾؛ لأَنَّ تَقَلُّبَ الكفَّار في البلاد يَسْتَغْرِقُ زَمَنًا، وإنْ كانَ قَليلًا، فَذُكِرَ حَرْفُ العطف الدَّالُّ على التَّراخي، وَهوَ (ثُمَّ)، بخلاف آية التَّوبة، فقد عُطِفَت بالواوِ؛ لأنَّها لم تَتَضَمَّنْ ما يدُلُّ عَلَى التَّراخي أو وجود فاصِلٍ زَمَنيٍّ، فكانَ الأَنْسَبُ العَطْفَ بالواو[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

المأْوَى والمثْوَى:

ذهَب بعضُ أهل العلم إلى أنَّ المأوَى والمَثْوَى بمعنًى واحِدٍ[2]، وفرَّق بينهما جَماعَةٌ، وحاصِلُ الفرقِ بَيْنَهُما مِن وَجْهَيْنِ: أحدهما: أنَّ المأوى أعمُّ من المثوى؛ لأنَّ المثوى يتضمَّنُ معنى الإقامة، بخلاف المأوى[3]؛ فقد يدلُّ على معنى الإقامة، وقد لا يدلُّ عَلَيْها؛ ولذا قد يأوي الإنسانُ إلى مكانٍ عارضٍ، ولذا جاء في الحديثِ قولُ النَّبيِّ

المَأْوى أَعَمُّ مِنَ المَثْوى عُمومًا مُطْلَقًا، وفي كليهما معنى الإيواء

(1) محمّد محمّد داود، معجم الفروق الدّلالية في القرآن الكريم، ص: 592.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 14/77، والواحديّ، التفسير البسيط: 20/232، والدَّقيقي، اتفاق المباني وافتراق المعاني، ص: 255.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 2/301، ومحمّد الأمين الهرَريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 5/222.

ﷺ: «انْطَلَقَ ثَلاثَةُ رَهْطٍ مِمَّنْ كانَ قَبْلَكُمْ حَتَّى أَوَوا المَبيتَ إِلَى غارٍ»[1] - في القصَّة المَشْهورَة - فعبَّر عَن مَبيتِهم العارِضِ في غارٍ بالإيواءِ، والآخَرُ: أنَّ الإقامةَ التي دلَّ عليها لفظُ (المَأْوَى) تُفارق الإقامةَ الَّتي يدلُّ عليها لفظُ (المَثْوَى)؛ لأنَّ الإقامةَ في المثوَى إقامةٌ مع دوام، بخِلافِها في المأوى[2]، فالمأوى قد يُقيم فيه المرءُ إقامةً طَويلَةً، ولكنَّ المثوَى يقتضي الإقامةَ الدَّائمةَ[3]، وقد جُمِعَ بين المَأْوَى والمَثْوَى في آيةٍ واحدةٍ، وهي قول اللّه تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٥١﴾ [آل عمران: 151]، وهو يؤيِّدُ أنَّ في المثوى أمرًا زائدًا على المأوَى، ففي ذِكْر المثوى بعد المَأْوَى إشارةٌ إلى خُلودِهِمْ، ولذا قُدِّم المَأْوَى؛ بالنَّظر إلى التَّرتيبِ الوُجوديِّ؛ فإنَّ الكافرَ يَأْوِي ثُمَّ يَثْوِي[4].

(1) رواه البخاريّ، الجامع الصحيح، الحديث رقم: (2272)، ومسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (100)، واللفظ للبخاري.
(2) عبد الجبّار فتحي زيدان، الفروقُ اللُّغويَّة في القرآن الكريم، ص: 167 - 168.
(3) محمّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 3/1450.
(4) القِنَّوجيّ، فتح البيان: 2/352.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 17 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-14-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 17 : المجلد السابع عشر، سورة التوبة من الآية 23 إلى الآية 86.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-14-2
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-4716310 بتاريخ 2024/01/24م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»